النهار

الأحد 03 شباط 2008 - السنة 74 - العدد 23256

شهادة أستاذ زائر في جامعة حلب (4 - الأخيرة)

طلبة الكبت والعشائر والقصَصَ الشعبي والحزبيون يفصلون الأساتذة

حلقة أخيرة من شهادة استاذ زائر في كلية الفلسفة والعلوم الانسانية في جامعة حلب السورية.

-14-

رئيس قسم الفلسفة في الكلية ماروني من مشتى الحلو، وكان نال منحة حزبية بعثية لمتابعة دراساته العليا في إحدى جامعات الاتحاد السوفياتي السابق، فتخرج منها وعاد للتدريس في الكلية. أثناء تدريسي علمت أن الجماعة الحزبية البعثية الطالبية اتهمته بسوء الإدارة في قسم الفلسفة الذي يرأسه، واستدعته الى جلسة محاسبة أو محاكمة حضرها الطلبة البعثيون في الكلية. ومن التهم التي وجهها اليه الطلبة في جلسة المحاسبة التي اقتصرت عليهم وحدهم من دون حضور أي استاذ او اداري في الكلية، انه يتسلط على الطالبات المحجبات ويضايقهن ولا يحترم تقاليدهن ومشاعرهن الدينية، لأنهن محجبات. والتهمة الأخرى التي وُجهت اليه أيضاً، انه طلب من طالب مؤمن نال منحة للدراسة في روسيا، أن يجلب له من هناك بعض زجاجات الفودكا.

أخيراً انتهت جلسة محاسبة الطلبة الحزبيين البعثيين لاستاذهم ورئيس قسم الفلسفة في كليتهم، باتخاذهم قراراً مبرماً غير قابل سوى للتنفيذ، بعزله من وظيفته في رئاسة القسم، وعودته استاذاً عادياً للفلسفة في الكلية، مع العلم أنه حزبي بعثي، وبينت لي صلتي الاكاديمية به أنه كان يسيء التصرف في عمله الاداري والاكاديمي، كغيره من الاساتذة والاداريين من دون ان يختلف عنهم في شيء. وحين يتحول سوء التصرف قاعدة عامة في مؤسسة تعليمية او في غيرها من المؤسسات، على ما هو عليه الحال في سوريا، لا تعود هذه الصفة، اي سوء التصرف، تنطبق عليه، ولا يعود مرئياً أو منظوراً او نافراً، بل يصير سلوكاً عادياً، وغير قابل للمحاسبة التي لا بد من ان تنصب على سلوك من يحسن التصرف، والذي يبديه سلوكه هذا شخصاً نافراً وخارجاً على القاعدة المالوفة السائرة.

حادثة فصل رئيس قسم الفلسفة من وظيفته هذه التي مرّت مرور الكرام في الكلية، وكأنها أمر عادي، جعلتني أعلم ان الطلبة الحزبيين البعثيين في أي من كليات الجامعة السورية، يستطيعون فصل العميد من وظيفته، إذا رغبوا وأرادوا.

-15-

تشكل الطالبات المحجبات اكثر من نصف عدد الطالبات في الكلية، واذا اشرنا الى ان المسيحيات لا يتحجبن، وأن الكرديات لا يقبلن بكثافة على ارتداء الحجاب، نستنتج ان الغالبية الساحقة من الطالبات العربيات والمسلمات هي التي تقبل على ارتداء الحجاب الذي تتنوع اشكاله وألوانه، ليبرز الأسود الثقيل وحاجب الجسم كله سوى العيون، بروزاً مشهوداً، حتى في كافيتريا الكلية التي أخذت بعض الطالبات يدعونني اليها للجلوس معهن، جماعات جماعات، من دون أن تدعوني أي منهن مفردة لمجالستها وتناول القهوة. وقد رأيت طوال سنتين دراسيتين في الكلية أن الطالبات فيها يدخلنها كما يخرجن منها شللا وجماعات، كأن الواحدة منهن تخاف أو لا تقوى ولا تتجرأ على التنقل والجلوس منفردة. وحين فكرت في سلوك الطالبات هذا، قياساً على ما علمته وتصورته عن حياتهن ومجتمعهن العائلي والأهلي، ونمط العلاقات السائدة في دوائر المجتمع، رأيت أن حياتهن الجامعية شللا وجماعات أمر عادي وطبيعي. ذلك أن لا شيء في حياة الطالبات يستدعي ان تكون الواحدة منهن بمفردها، إذ ما الذي ستفعله الطالبة في حال انفرادها بنفسها في الكافيتيريا او في غيرها من الأماكن في الكلية؟ ولو حدث أن انفردت طالبة بنفسها وجلست وحدها في الكافيتيريا، فلا بد أن تشعر بشيء من الاضطرابات واللادعة واللاأمان، كأنها جسم زائد ومحاصر ومراقب ومعزول وسط

الجموع المتكوكبة كتلا وجماعات.

- 16 -

مرة دعتني طالبة محجبة لتناول القهوة والتحادث في الكافيتريا. كانت أختها معها، كأنما لتحرس كل منهما الأخرى. ولتشعرا بالأمان، وبأن للواحدة منهما قرينتها التي تتكىء عليها، فلا تباشر العالم بمفردها. وقالت لي الطالبة التي دعتني لمجالستها إنها تدرس الأدب الانكليزي، وتريد التحادث معي بالانكليزية كي تتمرن على المحادثة في هذه اللغة التي تدرس آدابها. لذا طلبت مني أن نلتقي ساعة في النهار لهذه الغاية.
بعد لقاءين أو ثلاثة، صارت تأتي وحدها من دون شقيقتها القرينة للقائي. وبعد لقائنا الثاني منفردين من دون الأخت، أقلعت عن محادثتي بالانكليزية، وأنطلقت تروي لي بالعربية معاناتها مع أهلها وإخوتها، ومشاكلها العاطفية والجنسية، وشعورها بالاختناق في حياتها.
من أحاديثها استنتجت أن لا البيئة العائلية القاسية والمغلقة التي تعيش فيها وتحاصرها، ولا الحجاب الذي ترتديه، يمنعانها من أن تجد متنفساً ما ومسارب لحياتها. فهي تمتلك هاتفا شخصياً محمولا، وتأتي الى الجامعة، وتجلس في الكافيتريا، وتشاهد ما تريد على المحطات التلفزيونية الفضائية... لكن هذه الحرية لا تتيح لها قط التعبير الفعلي عن حياتها ورغباتها وإرادتها الشخصية، ولا عن المشكلات التي تعيشها، ولا عن مكنونات نفسها. وهي لا تعلم موضوعاً لرغبتها وإرادتها ومكنونات نفسها، بل تعيشها كشعور غامض، لتشعر دائماً بالضيق والحصار، من دون أن يكون مصدر هذين الضيق والحصار خارجياً، بل داخلي وشخصي، ومن دون أن تدرك مصدرهما الفعلي أو الحقيقي، كأنهما يلابسان الهواء وطبيعة الحياة نفسها، على ما فهمت منها، حين قالت في إحدى جلساتنا في الكافيتريا إنها موشكة دائماً على الانفجار من شدة الكبت النفسي في حياتها اليومية. والاصح القول، على ما استنتجت، إن هذا الكبت لا يلابس حياتها على نحو شخصي ومنفرد، بل هو يلابس الحياة اليومية كلها. لكن الفرق بينها وبين الأخريات أن شيئاً ما في نفسها، قد يكون دراستها الأدب الانكليزي، هو الذي أشعرها بهذا الكبت الذي يعيشه الآخرون والأخريات بوصفه حالاً عادية وطبيعية، فلا يشعرون بوجوده في أنفسهم وحياتهم. وقد يكونون يدفعونه عنهم بتلاؤمهم مع طبيعة الحياة التي لا شيء فيها ولا في أنفسهم يدفعهم الى الخروج عليها أو معاكستها، طالما أنهم يعيشون حياتهم الطالبية شللاً وجماعات، ولا يرون أنفسهم الا في مرايا هذه الشلل والجماعات التي تردم شعورهم بالكبت والضيق في حال انفراجهم بأنفسهم.
ولاح لي من أحاديثي مع طالبة الأدب الانكليزي أن وسائل التواصل والترفيه الحديثة، كالهاتف الخليوي والتلفزيون والانترنت وحتى دراسة الأدب الانكليزي أو الفرنسي، فيما هي تفتح ثقوباً ما للتواصل والحرية وتنشئ حيزاً ما للابتعاد عن نمط الحياة التقليدية المحافظة وحصارها، تضاعف الكبت والضيق، بدل أن تقلل منهما في المجتمع السوري، وغيره من المجتمعات العربية. فالذي تتيحه الحياة الجامعية والجلوس في الكافيتريا من تعارف وتخالط وتلاق بين الشابات والشبان، يضاعف الكبت الجنسي والعاطفي ولا يصرفه، ما دامت هذه الكوى أو الثقوب لا تفضي الى شيء فعلي، أي الى علاقة أو صلة عاطفية أو جنسية بين شاب وفتاة، تقتصر علاقتهما على اللقاء شللاً وجماعات، والتحادث في أمور لا أثر فيها للتعبير الشخصي الذي يظل مكتوماً، بل ضائعاً وغير موجود أصلاً، إلا في حالات نادرة تعذّب أصحابها وتضاعف كبتهم وضيقهم بأنفسهم، مثل طالبة الادب الانكليزي.
فكيف لطالبة مثلها محجبة وتراوغ أختها وقرينتها كي تلتقي أستاذاً في الكافيتريا لتحادثه عن ضيقها بنفسها، وتتوسل اللغة الانكليزية للبدء بهذه اللقاءات، ومعجبة ببرنارد شو وفولكنر، وتكتب يوميات عاطفية مكبوتة، وليس من سبيل لتطوير كتابتها هذه ونشرها... كيف لها أن تختبر ما تعيشه وتعبر عنه، ما دامت ا ختارت دراسة الأدب الانكليزي لتجعله وسيطاً للتعبير عن رغبات وأهواء ومشاعر تكبتها اللغة العربية والاجتماع العربي.
وكان أن فكرت كم شبيهة حال الفتاة هذه في ما يتعلق بكبت المشاعر الفردية والشخصية وكتمانها، بحال المجتمع السوري كله، حين يكتم النظام السياسي البعثي أنفاسه، ويخلي بين الناس وأنفسهم وأجسامهم ويترك هذه النفوس والاجسام في حال من الاستنقاع والرثاثة والكتمان السياسي والاجتماعي.

-17-

حضور الطلبة من أصول أو مصادر عشائرية هو الأقوى والأبرز في الكلية، مع العلم أن نسبتهم من مجموع الطلبة لا تتجاوز الـ25 في المئة. يقيم هؤلاء ويعيشون في مناطق عشائرية التركيب والعلاقات الاجتماعية،

تمتد خارج دائرة يبلغ طول قطرها 50 كلم، هي محافظة حلب، المدينة مع ريفها الزراعي القريب. وحين رافقت طالباً في زيارة لهذه المناطق العشائرية، لم أبصر في الأمداء القاحلة سوى تجمعات سكانية فقيرة العمران، كأنها مضارب طينية للبدو. معظم طلبة هذه التجمعات لا يحضرون الى الكلية الا في مواسم الامتحانات الفصلية. وبعضهم يقيم في ضواحي السكن العشوائي الناشئة في جوار مدينة حلب، وهم جميعاً قليلو الخبرة في الزراعة، على خلاف الطلبة المتحدرين من أصول فلاحية في الدائرة الزراعية حول حلب. وهؤلاء يشكلون ايضاً 25 في المئة من الطلبة.
نسبة الـ50 في المئة الباقية من الطلبة من بيئات مدينية، وهم من عائلات متباينة المراتب الاجتماعية، منها الفنية والمتوسطة وما دون المتوسطة بقليل. فالجامعة الرسمية في سوريا هي عماد التعليم الجامعي، و هي المفضلة من الفئات الاجتماعية كافة، لأن الجامعات الخاصة التي نشأت منذ سنة 2005، ينحدر فيها مستوى التعليم الى الحضيض. ومن احتكاكي بالطلبة من الفئات الثلاث، استنتجت أن أبناء الفئات المدينية في سوريا، وفي البلدان العربية الأخرى على الأرجح، عديمو الخبرة العملية في شؤون الحياة، وفي العمل اليدوي الحسي، لأنهم يعيشون في بيئات شبه مغلقة وفكرتهم عن العالم والعيش وشؤون الدنيا والحياة مستمدة من قيم محافظة ومدرسية وتفتقد الحس العملي والإدراك والخبرات الحسية.

-18-

واحد من طلابي المقيمين في بيئة عشائرية ويدرس علم الاجتماع، عرض عليّ مرة أن يؤمن لي ما أحتاجه من مادة المازوت للتدفئة ومادة البنزين لسيارتي، وقال إنه يعمل موظفاً ملحقاً بوزارة النفط، ومعجب بمدرسة شيكاغو. في البداية لم أفهم ما الذي يعنيه في كلامه على الاعجاب بهذه المدرسة التي لم أكن أتوقع أن اسمها معروف بين الطلبة، الى أن قال لي إنه قرأ كتاباً في ترجمة مصرية عن مذهب مدرسة شيكاغو الاميركية في علم الاجتماع، إذ نبهته قراءته للكتاب الى إمكان وصف طبيعة العمران والعيش في حي العمران العشوائي الذي يقيم فيه. أدهشتني ملاحظته، كما كانت قراءته للكتاب قد أدهشته هو ايضاً، وفتحت بصيرته على النظر السوسيولوجي الوصفي الى البيئة التي يعيش فيها.
كنت أعلم أن لغتنا وثقافتنا العربيتين الاسلاميتين المتحدرتين عن اصول فقهية وصوفية، تبتعدان عن الوصف. فالفقه والتصوّف يمليان على الناس أحكاماً تقول لهم ماذا عليهم أن يفعلوا وكيف عليهم أن يسلكوا في حياتهم، من دون أي وصف لأحوال هذه الحياة ووقائعها وشؤونها الموضعية في الزمان والمكان المحددين، كأن ليس من واقع ووقائع في هاتين اللغة والثقافة.
ملاحظة هذا الطالب حملتني على أن اقترح عليه القيام بدارسة وصفية لحي العمران العشوائي الذي يقيم فيه، فزرناه معاً اكثر من مرة، لأكتشف أن الطالب البالغ من العمر 40 سنة والموظف في مكاتب وزارة النفط في حلب، متزوج من ابنة عمته وعندهما 7 اولاد، وعضو في حزب البعث الحاكم، ويقيم اهله في قرية عشائرية تبعد من حلب اكثر من 50 كلم شرقا.
لاحقا قمنا بزيارة هذه القرية اكثر من مرة ايضا. في الطريق اليها لاحظت ان لا زراعة ولا عمران الا شحيحا وفقيرا في الخلاء شبه المقفر. فكلما كنا نقطع نحو عشرة كيلومترات كان يطالعنا تجمع سكني يحوي 10 أو15 بيتا طينيا متقشفاً، من دون اي اثر لنبت او شجر او لحياة خارج محيط البيوت الطينية حول بئر ماء تعود الى العصر الروماني، من دون ان تُحفر بئر واحدة اضافية منذ ذلك العصر.
توطدت علاقتي بهذا الطالب الذي تنبهت ان كثرة الادوار والدوائر والبيئات التي ينتمي اليها ويتنقل بينها، تجعله مختلفا عن غيره من الطلبة الآخرين الذين عرفتهم واحتككت بهم. فبين عمله ودوره الحزبي البعثي، ووظيفته في وزارة النفط، وسكنه في حي العمران العشوائي، وتحدره من بيئة عشائرية لا يزال على صلة دائمة بها، وكونه طالبا في علم الاجتماع في الكلية، اتسعت خبراته ومداركه وتنوعت وتشابكت وامست حساسيته قابلة للمقارنة والربط والتركيب، مما دفعني الى الاعتماد عليه في دراسة اجتماعية عن احياء العمران العشوائي وتركيبها الاجتماعي وصلتها بالبيئات العشائرية. فغيره من طلبة الكلية الذين كنت اوجههم نحو دراسة العمران في شارع مديني، او اشكال واجهات المتاجر في المدينة، او اشكال اللباس والموضة الدارجة، او نمط الحياة اليومية وعلاقاتها، كانوا يستغربون ويتضاحكون، قائلين: "عم (انك) تمزح، استاذ!". فعلم الاجتماع عندهم هو ما يقرأونه في كتاب ويحفظونه غيبا او عن ظهر قلب، وعلى نحو مدرسي، ثم يكتبون بعضا منه على صفحات كراسة الامتحانات.
اما مع الطالب المتعدد الادوار والبيئات، فقد تحادثنا طويلا عن كيفية نشوء احياء العمران العشوائي، وكيف تُبنى البيوت العشوائية، وتسرق اليها المياه والطاقة الكهربائية والاتصالات الهاتفية من احياء عشوائية مجاورة سابقة عليها، وهكذا دواليك. وبعد مضي 10 سنوات على نشأة كل حي تعترف الادارة الحكومية به،

فيصير حياً شرعياً للعمران العشوائي.

-19-

بعد مدة من اغتيال الرئيس رفيق الحريري، زرت الطالب الاربعيني المتنقل بين بيئات كثيرة. شيئا فشيئا، رحت اشعر باضطرابه وضيقه بزياراتي له في بيته بحي العمران العشوائي قرب حلب. مرة استدعى جارا له في الحي، ليروي لي حكايات عن مشاركته في وحدات الجيش السوري التي هاجمت قصر بعبدا الجمهوري في 13 تشرين الاول 1990، فقال انه الجندي السوري الاول الذي دخل القصر الرئاسي اللبناني، في عداد كتيبة عسكرية من نحو 500 جندي قصفتهم خطأ الطائرات السورية التي هاجمت القصر في ذلك النهار، فقتلوا جميعا سوى 10 جنود، كان هو من بينهم مع جندي كردي.
ذكرتني روايته هذه بغيرها من امثالها كنت قد سمعتها من بعض سائقي سيارات الاجرة في دمشق. واحد من اولئك السائقين روى لي انه كان في عداد كتيبة من الجيش السوري كانت تتمركز قرب شتورا قبيل الهجوم على القصر الجمهوري في بعبدا. وفي اثناء الهجوم تلقت كتيبته اوامر من قيادتها بالزحف نحو بعبدا، بعدما كانت الطائرات السورية قد قصفت خطأ الكتيبة السورية التي هاجمت القصر الرئاسي، فقتل معظم جنودها الذين قال راوي سيارة الاجرة ان عددهم كان 5 آلاف جندي. وحين وصلت كتيبة الراوي الى القصر لاحتلاله، راحت ارجل جنودها المهاجمين تصطدم بقتلى الكتيبة السابقة، وكانت الاوامر العسكرية لجنود الكتيبة الجديدة المستقدمة من شتورا لمهاجمة القصر من جديد، تقول: اتركوا الجثث والجرحى في مكانها، واحتلوا القصر.
لا يستطيع المستمع الى هذه الروايات والأخبار ومن جنود سوريين ان يعلم مقدار ما يلابسها من الشطط والغفلة والتضخيم والهذيان والخيال والتهويل. فحين يروي هؤلاء الجنود اخبارا عما عاشوه وخبروه من وقائع حربية في لبنان، تجدهم يروونها على مثال القصص الخرافي، ليجعل كل راو منهم نفسه في موضع البطولة القصصية الخرافية او الاسطورية التي يروح الراوي، في كل مرة يروي قصته لمستمعيه، يضيف اليها وينقص منها، بحسب مقتضى الحال والهوى. فتارة تكون الكتيبة العسكرية مؤلفة من 500 جندي، لتصير في حكاية اخرى مؤلفة من 5 آلاف جندي. ورواة هذه الروايات من الجنود تلقى الاستجابة نفسها من المستمعين اليها الذين لا يختلف حالهم وحال الراوي عن جلسات حكواتية المقاهي التي يروون فيها قصص عنترة العبسي والزير سالم بن المهلهل. والحق انني في زياراتي الاخيرة للطالب الاربعيني، لمست ان احد رواة هذه الحكايات الحربية في لبنان، يتمتع بدور الحكواتي القديم ومكانته في الحي الذي يقيم فيه. اما صاحبنا الطالب فراح يقول تعقيبا على هذه الحكايات انه لا يفهم لماذا اخذ اللبنانيون يتظاهرون ضد السوريين ويشتمونهم بعد اغتيال رفيق الحريري، مستبخسين التضحيات التي قدمها الجيش السوري للشعب اللبناني الشقيق.

-20-

مرة طلب مني رئيس قسم التاريخ في الكلية ان القي محاضرة خارج دوام التعليم الجامعي، ما دمت باحثا في التاريخ العثماني لبلاد الشام. وافقت على طلبه على ان يحدد موعدا للمحاضرة. قال انه يجب ان يتقدم بطلب الى العميد ورئيس الجامعة يتضمن موضوع المحاضرة التي يجب ان يكون نصها ايضا مرفقاً بالطلب، مشيرا الى ان انجاز المعاملة الادارية هذه يتطلب ما يزيد عن شهرين على الاقل. وحين سألت رئيس القسم بعد اكثر من شهرين عن معاملة المحاضرة وموعدها، قال لي ان العميد رفض الطلب، لأن اختصاصي هو علم الاجتماع الذي ادرّسه في الكلية، ولا يجوز ان احاضر في التاريخ. ثم روى لي ايضا انه استطاع ان يتجاوز هذه العقبة، وأوصل الطلب الى رئيس الجامعة مرفقا بنص محاضرتي، فوافق عليهما الرئيس، مع العلم انه طبيب بشري، لكن الطلب ضاع في مكتبه.
ولظن رئيس قسم التاريخ انني راغب في القاء محاضرة، وليطيّب خاطري، وعدني بأن أكون اول المشاركين في مؤتمر عن الكتابة التاريخية يقام في نهاية العام الدراسي. وفي يوم المؤتمر الموعود شرعت في قراءة نص تاريخي عن دور الفقه الاسلامي في الكتابة التاريخية في الحقبة العثمانية. كان العميد حاضرا قبالتي في الصف الامامي من القاعة، فلم يتوقف عن تلقي المكالمات الهاتفية المتواصلة على هاتفه المحمول، مما حملني على التوقف عن قراءة نص المحاضرة في الصفحة العاشرة منها، من دون ان ينتبه اي من الحاضرين الى انني لم ابلغ خاتمتها.
ودعيت مرة لالقاء محاضرة في جامعة البعث في اللاذقية، حيث ارتجلت الكلام ملخصاً مضمون المحاضرة

السابقة. وبعد دقائق قليلة هب شخص في القاعة من مكانه ليقاطعني قائلا انني اشوه التاريخ العثماني وتاريخ بلاد الشام الوطني، فتوقفت ايضا عن متابعة الكلام، وأنا اسمع الصارخ في القاعة من بعيد، يردد: عيب، عيب، كأنني شتمت امه او اباه.

محمد أبي سمرا

جميع الحقوق محفوظة - © جريدة النهار 2008